

الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال: «ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه» سمعت ذلك من نبيكم ﷺ. وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر، زمان قد مضى، ومنكره معروف، زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي فسبقها فشق ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم. فقال ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه».

وحكي عن شيخ من همدان قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف اشرافة من كوة له، فخرّ له من حول القصر ساجداً، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص، واشترى بدرهم لحماً وسمطه خلف دابته، وهو القائل هذه الأبيات:

أفٍ للذّنيا إذا كانت كذا	أنا منها في بلاء وأذى
إن صفّا عيشُ امرئٍ في ضُبجها	جرّعتُهُ ممسِياً كأسَ الرذی
ولقد كنتُ إذا ما قيلَ مَنْ	أنعمُ العالمِ عيشاً قيلَ ذا

وقال يونس بن ميسرة: لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه، ومن ذلك قوله:

رُبَّ يومٍ بكيْتُ منه فلمّا	صرتُ في غيرِهِ بكيْتُ عليه
-----------------------------	----------------------------

ومثله:

وما مرَّ يومٌ ارتجى فيه راحةً	فأخْبِرُهُ إلا بكيْتُ على أسي
-------------------------------	-------------------------------

ومن كلام ابن الأعرابي:

عَنِ الأيَّامِ عَدَّ فَعَن قَلِيلِ	تَرى الأيَّامَ في صُورِ اللَّيالي
------------------------------------	-----------------------------------

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبا له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:

فما الناسُ بالناسِ الذين عهدتُهُمْ	ولا الدارُ بالدارِ التي كنتُ أعهدُ
------------------------------------	------------------------------------

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غاراً فوجد فيه رجلاً ميتاً وعند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا فلان بن فلان الملك

عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، واقتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم في رغيف، فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجوهر فلم يوجد، فدقت الجواهر واستفيتها فمئت مكاني فمن أصبح وله رغيف، وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كإماتي. وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كل يوم ألف درهم على نفسه فإنه يكفيه، فرؤي بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها. وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة في يوم شاتٍ وهو جالس في قبة مغطاة بالسمور^(١)، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود، ثم رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس. ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل في ناره وقعد على فرشه، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عمر إن دهرأ أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد بلغ في عظتك. وقال مالك بن دينار مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدفوف ويقلن:

ألا يا داراً لا يدخلك حزنٌ ولا يغدُرُ بصاحبك الزمانُ
فنعَم الدارُ تأوي كلَّ ضيفٍ إذا ما ضاقَ بالضيفِ المكانُ

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز فسألته عما كنت رأيت وسمعت فقالت: يا عبد الله إن الله يغير ولا يتغير، والموت غالب كل مخلوق، وقد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان. وقال أبو العتاهية:

لئن كنت في الدنيا بصيراً فلإنما بلاغك^(٢) منها مثلُ زادِ المسافرِ
إذا أبقت الدنيا على المرء دينهُ فما فاتهُ منها فليس بضائرِ

وقال عبد الملك بن عمير رأيت رأس الحسن رضي الله تعالى عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك. قال سفيان: فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها قال اثنتا عشرة سنة. وقال الشاعر:

إنَّ للذهرِ صرعةً فاخذرنَّها لا تبيتنَّ قد أمّنتِ الشرورا
قد يبيتُ الفتى معافى فيردى ولقد كان آمناً مسرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبة على رأسها رقعة فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه:

تاه الأعرجُ واستعلى به البطرُ فقلْ له خيرُ ما استعملتُ الحذرُ
أحسنْتَ ظنَّكَ بالأيامِ إذا حسنتَ ولم تخفْ سوءَ ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغترزت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقال: فما انتفع بنفسه مدة. وأعجب ما وجد في السِّير خبرُ القاهر أحد الخلفاء، وقلعه من الملك وخروجه إلى لجامع في بطانة جبة بغير ظهارة ومدَّ يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعز من يشاء ويدل من يشاء. وقيل: كان لمحمد المهلب قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من

(١) السمور: جلود حيوان غالية الثمن غزيرة الفراء.

(٢) بلاغك: ما تحصل عليه.

أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشدته يقول:

ألا موتٌ يباعُ فأشتريه فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيه
ألا رَجِمَ المهيمُنُ نفسَ حرٍّ تصدَّقَ بالوفاءِ على أخيه

قال: فرثا له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا، ثم ترقى المهلبى إلى الوزار وأخنى^(١) الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قُلْ للوزيرِ فدَتُهُ نفسي مقالاً مُذكِراً ما قد نسيه
أتذكُرُ إذا تقولُ لَضَنكِ عيشٍ^(٢) ألا مَوْتُ يباعُ فأشتريه

فلما قرأها تذكر، فأمر بسبعمائة درهم ووقع تحت رقعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾^(٣) ثم قلده عملاً يرتزق منه. ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال: أي الزمان أدركته أفضل وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً وداماً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم، ويفرق عديدهم، ويهرم صغيرهم، ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

لم أبكِ من زمنٍ لم أرضَ خلَّتْه إلا بكيت عليه حين ينصرِمُ
وقال آخر:

يا معرضاً عَنِّي بوجهٍ مدبرٍ ووجوهٌ دنياءُ عليهِ مقبلَةٌ
هل بعدَ حالِكِ هذهِ مِن حالةٍ أو غايَةٍ إلا انحطاطُ المنزلَةِ

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير:

ذهبَ الذين إذا رأوني مقبلاً بشؤوا إلي ورجئوا بالمقبلِ
وبقيتُ في خلفٍ كأنَّ حديثَهُم ولغُ الكلابِ^(٤) تهاشَّتْ في المنزلِ

وقال آخر في معناه:

يا منزلاً عبثَ الزمانُ بأهله فأبادَهُم بتفرقٍ لا يجمعُ
أين الذين عهدتُهُم بك مرةً كأنَّ الزمانَ بهم يضرُّ وينفعُ
أيام لا يَغشَى لذكرك مربعُ إلا وفيه للمكارمِ مرتعُ^(٥)
ذهبَ الذين يعاشُ في أكنافِهِم^(٦) وبقيَ الذين حياتُهُم لا تنفَعُ

(١) أخنى: أساء.

(٢) ضنك عيش: ضيق حال.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٦١.

(٤) ولغ الكلاب: شرب بطرف لسانه.

(٥) مرتع: ملعب.

(٦) في أكنافهم: في رعايتهم.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

وإني رأيت الدهر منذ صحبتُه
إذا سرّني في أول الأمر لم أزل
محاسنُه مقرونةً ومعاييُنة
على حذرٍ من أن تدمّ عواقبُه

وقال بعضهم:

ذهب الرجالُ المقتدى بفعالهم
وبقيتُ في خلفٍ يزِينُ بعضُه
والمنكرون لكلِّ أمرٍ مُنكرٍ
حشّتْ يمينُك يا زمانُ فكفّر

وكان يقال: إذا أدير الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير. وكان يقال: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال، ويقال: زمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا ادباراً، والشر إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً. اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقيراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً، أو متمرداً كأن بسمعه عن سماع المواعظ وفراً؟ وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ما ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله رحمته: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه». ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل:

ما من مُسيء وإن طالت إساءتُه
إلا ويكفيك يومٌ من مساعيِه

وقال الأمين:

يا نفسُ قد حقَّ الحذرُ
كلُّ امرئٍ مما يخ
أينَ المفرُّ من القدرِ
من يرتشف صفو الزم

وقال بعضهم:

وقائله ما بال وجهك قد نصّت^(١)
فقلتُ لها هاتي من الناسِ واحداً
محاسنُه والجسمُ بانَ شحوبُه
صفاً وقته والنائباتُ تنوبُه

وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمرُ غيرُه
لئن كان كتمانُ المصائبِ مؤلماً
ومن هو بالسّر المكتم أعلمُ
وبى كلِّ ما يُكي العيونُ أقله
لإعلانها عندي أشدُّ وأعظمُ
وإن كنتُ منه دائماً أتبسمُ

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وإيم الله ما كان قوم في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد. ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فرعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لردّ عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

(١) نصت: خلعت.

يقولون الزمانُ به فسادٌ وهم فسدوا وما فسَدَ الزمانُ

وكفى بالقرآن واعظاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١) والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثاني: في الصبر على المكاره ومدح الثبوت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه في مواضع كثيرة وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحثَّ على الثبوت في الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَكِّدُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٥). وبالجمله فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعاً، وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾^(٦).

وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة. فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «بالصبر يتوقع الفرج»، وقوله: «الأناء من الله تعالى والعجلة من الشيطان». فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والثبوت في حركاته وسكناته. وكثيراً ما أدرك الصابر مراره أو كاد، وفات المستعجل غرضه أو كاد. وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت: يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فم زادني إلا أن قال:

اصبرْ على مَضَضِ الإِدْلاجِ^(٧) فِي السَّحَرِ
إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجَرِبَةً
وَقُلُّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ
وَفِي الرُّوَّاحِ إِلَى الطَّاعَاتِ فِي الْبَكْرِ
لِلصَّبْرِ عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ الْأَثَرِ
وَاسْتَضْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

فحفظتها منه، وألزمت نفسي الصبر في الأمور فوجدت بركة ذلك. وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ^(٨) ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍّ

(١) سورة: الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٥٣.

(٣) سورة: الزمر، الآية: ١٠.

(٤) سورة: السجدة، الآية: ٢٤.

(٥) سورة: الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٦) سورة: الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٧) الإدلاج: السير.

(٨) وصب: تعب شديد.

حتى الشوكة يشاكها إلا حطَّ الله بها من خطاياها». وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة» قال ﷺ: «إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله لسخط» رواه الترمذي وقال حديث حسن. وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أنس بن مالك قال، قال لنبي ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر لمصيبة، ومن استرجع^(١) بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها». وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: احفظوا عني خمساً، اثنتين واثنتين وواحدة: لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا ستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من لجسد إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلماً لمات في حبسه مات شهيداً، فإن ضربه فمات فهو شهيد.

وروي في الخبر: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سَوْأً يُجْزَ بِهِ﴾^(٢) قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر أليس تمرض؟ أليس يصيبك لأذى؟ أليس تحزن؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فهذا ما تجزون به» يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك. وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء. وروي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال بو جهل لعنه الله: أياكم يقوم إلى سلا^(٣) الجزور فيلقيه غل كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم^(٤) فأخذه وأتى به، فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم فضحكوا ساعة وأنا قائم انظر. فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله تعالى عنها، فجاءت نظرحته عن ظهره ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقرش ثلاث مرات، فما سمع القوم دعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته. فقال اللهم عليك بأبي جهل وعتبة وشيبة وربيعه والوليد وأميه بن خلف. فقال علي رضي الله تعالى عنه: والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم عسرى يوم بدر».

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث مَنْ رُزِقهنَّ فقد رزق خيرين الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء». وحكي أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقتها سارق فصبرت وردت أمرها إلى الله تعالى ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق ونف ريشها نبت جميعه في وجهه فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل فشكا له فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من

(١) قال «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٢٣.

(٣) سلا: أدرانه.

(٤) عتبة بن أبي معيط.

قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سُرقت: فقال: لقد أذاك من سرقها؟ فقالت: قد فعل ولم تدع عليه. قال: وقا فجعلك في بيضها؟ قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه. فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتقم لها الله، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ويحمد الله تعالى، ويعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وأن المصائب والرزايا^(١) إذا توالى أعقبتها الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

وإذا مَسَّكَ الزمانُ بضراً
وأثت بعده نوائبُ أخرى
فاضطَبرْ وانتظرْ بلوغَ الأمانِ
وإذا أوهنت قواك وجلت

ولمحمد بن بشر الخارجي:

إنَّ الأمور إذا استدَّتْ^(٢) مسالكُها
لا تياسَنَّ وإن طالَتْ مطالبُةٌ

ولزهير بن أبي سلمى:

ثلاثٌ يعزُّ الصبرُ عندَ حلولها
خروجُ اضطرارٍ من بلادٍ يحبُّها

وقال بعضهم:

عليك بإظهارِ التجلُّدِ للعِدَا
أما تنظرُ الریحانَ يُشَمِّمُ ناضِرا

ولابن نباتة:

صبراً على نوبِ الزم-
فلكلِّ شيءٍ آخرُ

وقال أبو الأسود وأجاد:

وإنَّ امرأً قد جرَّبَ الدهرَ لم يخفِ
وما الدهرُ والأيامُ إلا كما تَرى

ومن كلام الحكماء: ما جُوِّهَدَ الهوى بمثل الرأي، ولا استنبط الرأي بمثل المشورة، ولا حُفِظَتِ النعم بمثل

(١) الرزايا: النوازل.

(٢) تولت: انقضت.

(٣) استدَّتْ: أغلقت.

لمواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبير، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل:

ويسوم كأن المصطلين بحرّه
صبرنا له صبراً جميلاً وإنما
تُفرج أبواب الكريهة بالصبر

وقال ابن طاهر:

حذرتني وذا الحذر
ليس من يكثم الهوى
إنما يعرف الهوى
نفس يا نفس فاصبري
ليس يغني من القدر
مثل من باح واشتهر
من على مره صبر
فاز بالصبر من صبر

وكان يقال: من تبصر تبصر. وكان يقال: إن نواب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال لا دواء لداء دهر إلا بالصبر، والله دز القائل:

الدهر أدبني والصبر رناني
وحككتني من الأيام تجربة
وما أحسن ما قال محمود الوراق:

إني رأيت الصبر خير معول^(١)
ورأيت أسباب القناعة أكث
فإذا نبا بي منزل جاوزته
وإذا غلا شيء علي تركته

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة
فلن تصاريف الزمان عجيبة

وقال بعضهم:

وما سني عسر ففوضت أمره

وما أحسن ما قيل:

الدهر لا يبقى على حالة
فلن تلقاك بمكروهه
لا بد أن يقبل أو يدبر
فاصبر فإن الدهر لا يصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال: كنت معتقلاً بالكوفة فخرجت يوماً من السجن مع بعض جال وقد زاد همي وكادت نفسي أن تزهق وضاعت علي الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل ي ورأى ما أنا فيه من الكآبة، فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روي عن النبي ﷺ أنه

(معول: معتمد عليه.

قال: «الصبر سترٌ للكره وعَوْنٌ على الخطوب». وروي عن ابن عمه علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: «الصبر مطبٌ لا تدبير»^(١) وسيفٌ لا يكلٌ وأنا أقول:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجملَه عندَ الإله وإنجاءَ من الجزع
من شدَّ بالصبر كفاً عندَ مؤلمة ألوثَ يدها بحبلٍ غير منقطع

فقلت له: بالله عليك زدني فقد وجدت بك راحة، فقال: ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ ولكني أقول:
أما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن ليس في كل الأمور له كفو
لئن كان بدء الصبر مرًا مذاقه لقد يُجتنى من بعده الثمرُ الحلو

ثم ذهب. فسألت عنه فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة، ثم أخرجت في ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قبضه الله تعالى لي؛ يوقظني ويؤدبني ويسليني. وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط، ويجلد جلدًا بليغاً ولم يتكلم ويصبر ولا يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى. قال: لم لا تصيح فقال: إن في هؤلاء القوم الذين وقفوا عليّ صديقاً لي يعتقد في الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه فأخشى إضحيته^(٢) يذهب ماء وجهي عنده، ويسوء ظنه بي، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه ويخمد منه الصبرُ مما يصيبه
فمن قل فيما يلتقيه اضطباره لقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر، ولم يكلفني إلا ما كلفوا به»، فقال عز وجل: «فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»^(٣)، وإني وإياهم لأصبرن كما صبروا، فإن النبي ﷺ لمَّا صبر كما أمر أسفر وجهه صبره عن ظفره ونصره. وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولوا العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا. وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم. وقال قتادة هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ويقال: ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه:

أما نوح عليه الصلاة والسلام فقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة والسلام يضرر ثم يلف في لبد ويلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منه ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنة فقال لابنه: يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرك، فقال له ابنة: يا أبت مكّني من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام فشج بها رأسه وسال الدم علم وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدمهم وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوح

(١) لا تدبير: لا تنهزم.

(٢) ضحيته: صرخت.

(٣) سورة: الأحقاف، الآية: ٣٥.

الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ * وَأَضْنَعِ الْفُلْكَ^(١) قال: يا رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي. قال: يا رب وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير قال: يا رب وأين الخشب؟ قال أغرس الخشب، فغرس الساج عشرين سنة. وكفّ عن دعائهم، وكفوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه بقطعها وجففها، وقال: يا رب، كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عَجِّلْ بعمل السفينة فقد اشتد غضبي على مَنْ عصاني، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته وإهلاك قومه وعذابهم، إلا مَنْ آمَنَ معه، وفار التور، وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بمطار كأفواه القرب حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً. وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام، وفي تمام قصته، وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها لم يروا في قتله ونصرة آلهم أبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حاجزاً كالحوش طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل عال، ونادى منادي ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم، وَمَنْ تَخَلَّفَ عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً، ليلاً ونهاراً حتى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحاجز وقذفوا به النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمرّ بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنياناً شامخاً وبنوا فوقه منجيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، ورفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء. ودعا الله تعالى وقال: حسبي الله ونعم الوكيل. وقيل كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة. فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام وقال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. فقال جبريل: سَلْ رَبِّكَ، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذباً. قال كعب: ما أحرقت النار غير كتافه^(٣) وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل أكثر من ذلك. ونجّاه الله تعالى ثم أهلك نمرود قومه بأحسن الأشياء، وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم. فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى في ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءت قصة ذبح ولده، وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامتثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إهمال، وقصته مشهورة وتفاصيل القصة في كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه، وصبره على ما قدره وقضاه، عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتخذة خليلاً من بين خلقه واجتباها. وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه فإنه صبر على بلية الذبح، وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إني أريد أن أقرب قرباناً، فأخذ ولده والسكين والحبل وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبتي؟ قال: إن الله

(١) سورة: هود، الآيتان: ٣٦ - ٣٧.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٩.

(٣) كتافه: وثاقه.

تعالى قد أمرني بذبحك فانظر ماذا ترى قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(١). يا أبت شدّد وثاقي كي لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أُمّي فيشتدّ حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت علي، وإذا لقيت أُمّي فافقرأ السلام عليها. فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكي ويقول: نعم العون أنت يا بني على ما أمر الله تعالى. قال مجاهد: لما أمر السكين على حلقة انقلبت السكين فقال: يا أبت اطعن بها طعناً. وقال السدي: جعل الله حلقة كصفحة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصيره وامثاله لأمره.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام فإنه لما ابتلي بفراق ولده، وذهاب بصره، واشتداد حزنه، قال: ﴿فصبر جميل﴾^(٢) وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لما ابتلاه الله تعالى بالقائه في ظلمة الجب وبيعه كم تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن وحبسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهم جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام، فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله. ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاء جماعة من الأنبياء عن الظلم، وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام ولم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته. فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام: تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك لأطيلنّ بلاءك. فقال إبليس لعنه الله: يا رب سلّطني على أولاده وماله، فسلطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها، فاحتملوها جميعاً وقذفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجنات فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازلها، وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام وهو يصلي فتمثل له في صورة رجل من غلمان. فقال: يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة وقذفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعك، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهللك الجميع ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله ثم قبله مني، ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانياً فقال: يا رب سلّطني على جسده، فسلطه فنفخ في إبهام رجله فانتفخ، ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أمعاًؤه تبيين^(٣)، وهو مع ذلك كله صابر محتسب، مفوض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجاً عن البيوت من تن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ. فجاءته فأخبرته فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة، تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى فطردها عنه، فذهبت وبقي ليس له من يقوم به فلما رأى أنه لا طعام له، ولا شراب، ولا أحد من الناس يتفقده خرّ

(١) سورة: الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة يوسف: الآيتان: ١٨ و٨٣.

(٣) تبيين: تظهر.

ساجداً لله تعالى وقال: رب ﴿إِنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١) فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول، وما شكا إلى مخلوق ما نزل به، عاد الله تعالى بالطفافه عليه فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾^(٢) وأفاض عليه من نعمه ما أنساه به بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفاته في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب فقال تعالى: ﴿وَحُذِّبِيكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٣) فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب، وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوي الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولي العزم، وفتح لهم بصيرهم، أبواب مرادهم وسؤالهم، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم^(٤). فما أسعد من اهتدى بهداهم، واقتدى بهم وإن قصر عن مداهم، وقيل: العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تناهي الشدة تنزل الرحمة، والموفق من رزقه الله صبراً وأجرأ، والشقي من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً.

ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة، وأنحف النفع في نهج هذه العبارة ما روي عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: كنت بواسط فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: اكنم علي أمري، حبسني الحجاج منذ ثلاث سنين فكنت في أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معي فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقي، فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني، فقلت: إلهي اشتدّ الضر وفقد الصبر وأنت المستعان. ثم ذهب من الليل أكثره فأخذتني غشية وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتاني آت فقال لي: قُمْ فصلّ ركعتين وقل: يا مَنْ لا يشغله شيء عن شيء، يا مَنْ أحاط علمه بما ذراً وبرأ^(٥)، وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وسوس الصدور، وأنت بالمنزل الأعلى وعلمك محيط بالمنزل الأدنى تعاليت علواً كبيراً، يا مغيث أغثني وفكّ أسري واكشف ضريّ فقد نفذ صبري. فقمّت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه ولم تختلف علي منه كلمة واحدة. فما تمّ القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت فقمّت فخرجت ولم يعارضني أحد فأنا والله طليق الرحمن، وأعقبني الله بصبري فرجاً وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً، ثم ودّعني وانصرف يقصد الحجاز. وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود مَنْ صبر علينا وصل إلينا. وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها وقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذ رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات:

يَا مَنْ الْحَجَّ عَلَيْهِ الْهَمُّ وَالْفَكْرُ وَغَيَّرَتْ حَالَهُ الْأَيَّامُ وَالْغَيْرُ^(٦)

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٤.

(٣) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٤) مرآهم: مرادهم.

(٥) ذراً وبرأ: ترك وبرى.

(٦) الأيام والغير: نواب الدهر.

أما سَمِعْتَ لما قد قيل في مثل
ثم الخطوبُ إذا أحداً طَرَقَتْ
وكلُّ ضيقٍ سيأتي بعده سَعَةٌ
عند الإياس فأيْنَ الله والقدرُ
فاصْبِرْ فقد فَازَ أَقْوَامٌ بما صَبَرُوا
وكلُّ قوتٍ وشيكٌ بعده الظفرُ

ولما حبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وضاق صدره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فردّ عليه جواب رفقته يقول:

صَبْرًا أبا أيوب صَبْرَ مَبْرَحٍ
إن الذي عَقَدَ الذي انْعَقَدَتْ به
صَبْرًا فلنَ الصبرِ يعقبُ راحةً
وإذا عجزتَ عن الخطوبِ فَمَنْ لها
عَقَدَ المَكَارِهِ فيكَ يملكُ حلَّها
ولعلَّها أن تنجلي ولعلَّها
فأجابه أبو أيوب يقول:

صَبَّرْتَنِي ووعَظْتَنِي وأنا لها
ويحلُّها مَنْ كان صاحبَ عَقْدِها
فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً. وأنشدوا:

إذا ابتليتَ فثَقُ بالله وأرضَ به
اليأسُ يقطعُ أحياناً بصاحبه
إذا قضى الله فاستَسْلِمَ لقدرته
إن الذي يكشفُ البلوى هو الله
لا تَيْأَسَنَّ فإنَّ الصانعَ الله
فما تَرَى حيلةً فيما قَضَى الله

الفصل الثالث: في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثوري رحمه الله تعالى: لم يفقه عندنا من لم يعدّ البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. وقيل: الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر: لا أراك الله مكروهاً. فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بدّ له أن يرى مكروهاً. وتقول العرب: ويلُّ أهوٌّ من ويلَيْن. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غمومٌ فما كان فيها من سرور فهو ريحٌ. وقال العتبي: إذا تناهى الغمُ انقطع الدمعُ بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يبكي. وقيل: تزوّج مغنٍ بناتحة فسمعها تقول: اللهم أوسعْ لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه، إنما الدنيا فرحٌ وحزنٌ وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعوني، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء.

وقال مطرف: ما نزل بي مكروه قط فاستعظمتُهُ إلا ذكرتْ ذنوبي فاستصغرتُهُ. وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه يرفعه: «يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة أنْ لحومهم كانت تُقرضَ بالمقاريض، لما يَرَوْنَ من ثواب الله تعالى لأهل البلاء». وروى أبو عتبة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحبُّ البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لا يترك له مالاً ولا ولداً». ومرَّ موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله عزَّ وجلَّ قد مزقت السباع لحمه، وأضلّعه، وكبده ملقاة على الأرض فوقف متعجباً فقال: أي ربي عبدك ابتليته بما أرى. فأوحى الله

مالي إليه إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فأحببت أن أبتليه لأبلغه ذلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلي، حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظاماً فأصابته فما بلغ إلى مشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله. فقالوا له: اشرب مرقداً^(١). قال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمني له المنشار وقطعت رجله. فقال: ضعوها بين يدي ولم يتوجّع. ثم قال: لئن كنتُ ابتليتُ في عضوٍ فقد عُفيتُ في أعضاء. فبينما هو كذلك إذا أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على واب الوليد فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال. لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة. وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره. فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعالي، وعيالي، ولا أعلم عسباً يزيد ماله على مالي، فعرسنا في بطن وادٍ فطرقنا سبيلاً فذهب ما كان من أهل، ومال، ولد، غير صبي صغير، وبغير. فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير فسمعت صيحة لصغير فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهي برجليه فذهبت عياني أصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. وقيل: الحادث الممضة^(٢) مكسبة لحظوظ جلييلة، إما ثواب مدخر، أو تطهير من ذنب، أو تنبيه من غفلة، أو عريف لقدر النعمة. قال البحرني يسلي محمد بن يوسف على حسبه:

وما هذه الأيامُ إلا منازلٌ وقد دهمتكَ الحادثاتُ وإنما
أما في نبيِّ الله يوسفَ أسوءُ أقام جميلَ الصبرِ في السجنِ برهةً
فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزلٍ ضنكٍ^(٣) صفَا الذهبُ الإبريزُ قبلَكَ بالسبكِ
لمثلِكَ محبوسٌ عن الظلمِ والإفكِ فآلَ به الصبرُ الجميلُ إلى الملكِ

وقال علي بن الجهم لما حسبه المتوكل:

قالوا حُسِنَتْ فقلتُ ليس بضائري والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ
والنارُ في أحجارِها مخبوءةٌ والجبسُ ما لم تغشهُ لدنيّةٌ
بيتٌ يجددُ للكريمِ كرامةً لو لم يكنْ في الجسرِ إلا أنه
غرُّ الليالي بادياتٌ عُودٌ ولكلِّ حيٍّ معقبٌ ولربما

خَبَسِي وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يَغْمَدُ
عَنْ نَاطِرَيْكَ لِمَا أَضَاءَ الْفَرْقُدُ^(٤)
لَا تَصْطَلِي إِنْ لَمْ تُثِرْهَا الْأَزْنَدُ
شَنْعَاءُ نَعَمَ الْمَنْزَلُ الْمَتَوَدُّ
وَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْمَدُ
لَا تَسْذِلُكَ بِالْحِجَابِ الْأَعْبَدُ
وَالْمَالُ عَارِيَةٌ يُعَارُ وَيَنْفَدُ
أَجْلَى لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا يُحْمَدُ

(١) مرقداً: منوماً.

(٢) الممضة: الموجعة.

(٣) ضنك: ضيق.

(٤) الفرقد: نجم في السماء.

لا يُؤسِّنْكَ^(١) من تفرُّج نكبةٍ خطبَ رماكَ به الزمانُ الأُنكدُ
كم من عليلٍ قد تخطاه الردى فنجاً وماتَ طيِّبُهُ والعُودُ
صبراً فإن اليومَ يعقبُهُ غدٌ ويدُ الخلافَةِ لا تطاولها يدُ

قال وأنشد إسحاق الموصلي إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هي المقاديرُ تجري في أعنتها فاصبرِ فليسَ لها صبرٌ على حالٍ
يوماً تُريكَ خيسَ الأصلِ ترفعهُ إلى العلاءِ ويوماً تخفضُ العاليِ

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضي الله عنه. وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المدني حين عزل:

ليهن أبا إسحاق أسبابَ نعمةٍ مجددةً بالعزلِ والعزلُ أنبلُ
شهدتُ لقد منُّوا عليك وأحسنوا لأنك يومَ العزلِ أعلى وأفضلُ

وقال آخر:

قد زادَ ملكُ سليمانَ فعاوده والشمسُ تنحطُّ في المجرى وترتفعُ

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول: الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال، وعافى في الكبير وهو الحال:

ولا عارَ إن زالت عن الحرِّ نعمةٌ ولكنَّ عاراً أن يزولَ التجمُّلُ^(٢)

وقيل: المال حظ ينقص ثم يزيد، وظلّ ينحسر ثم يعود. وسئل بزرجمهر عن حاله في نكبته؟ فقال: عوّلت على أربعة أشياء: أولها أنني قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما، الثاني أنني قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث أنني قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع أنني قلت لعلّ الفرج قريب.
والله تعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) لا يؤسِّنْكَ: لا يزهّدك.

(٢) التجمُّل: الصبر.